تحدّيات الموسيقى والتربية الموسيقيّة في ظلّ التطورات التكنولوجيّة والتغيرات المجتمعيّة

الأب الدكتور/ يوسف طنوس*

خلال تاريخها الطويل، شهدت الموسيقى تطوّرات كثيرة كان الإنسان والمجتمع وراءها. مع التطوّر التكنولوجي، باتت الموسيقى عامّة، والموسيقى العربيّة خاصّة، تواجه تحدّيات عديدة حول مفهومها ودورها وأدواتها. فالتطوّر التكنولوجي سمح لغير الموهوبين ولغير المختصّين بدخول عالم الموسيقى، خاصة في مجال التأليف والتلحين والتوزيع الموسيقيّ .

إنّ أول تحدّ كبير للموسيقى، هو أن تبقى موسيقى لحنيّة مبدعة في ظلّ تغليب الطابع الإيقاعي المعلّب والجمل اللحنيّة المستنسخة والجاهزة في البرامج الموسيقية. فالموسيقى المبدعة تخاطب الروح والأذن المُنصتة وتسمو بسامعيها وتبقى ذخرًا للأجيال؛ بينما تركّز الموسيقى الاستهلاكية السائدة على إثارة الغرائز بمواضيعها واستعراضاتها، وعلى تحريك الأرجل بإيقاعاتها الصاخبة، وتزول كعشب الحقل.

والتحدّي الثاني الكبير للموسيقى، هو أن تحافظ على دورها التثقيفيّ والإيجابيّ، في ظلّ تأثير شركات الإنتاج على المجتمع الى استخدامها فقط في التسلية والاستهلاك، والاستسهال في إطلاق ألقاب "مطرب" (أو "مطربة") وملحّن ومؤلف موسيقي على من لا يستحقّونها. فهل المجتمع بات يفضّل الإستعراض الموسيقي على السماع المُنصِت؟ أم إن التغيير المجتمعي بات ينجذب الى الإبهار البصري أكثر منه الى السماع الموسيقي؟ وأين النقد الموسيقيّ من كلّ ذلك؟

وماذا أقول عن التربية الموسيقيّة التي باتت شركات الإنتاج الفنّي والتلفزيونات وما يُدعى بـ "وسائل التواصل الإجتماعي" وتطوّرها التكنولوجي تؤثّر في المجتمع الواسع أكثر من المؤسسات التعليميّة والجامعيّة وتتحكّم فيه، لأهداف تسويقيّة وتجاريّة وبثّ أفكار وأداءات بعيدة عن التربية الحقيقيّة.

* عميد كلية الموسيقى الأسبق –جامعة الروح القدس (الكسليك) لبنان.

فالتربية الموسيقية التي كانت تهدف لصقل المواهب وإعداد كوادر من أجل تثقيف الأجيال والمجتمع وكشف الأدوار الإيجابية التي يمكن للموسيقى أن تلعبها على كافة الأصعدة والمجالات، بات السوق الإستهلاكي وشركات الإنتاج، من خلال التلفزيونات والفضائيّات والشبكة العنكبوتيّة وتطبيقات الهواتف الذكيّة، يتحكّم بتلك الأهداف ويستبدلها بحثّ الشبيبة للوصول سريعًا إلى الشهرة وما يسمّى بـ "النجوميّة" المرتكزة على الشكل الجميل والإغراء، أكثر منه على الموهبة الحقيقية والاختصاص الموسيقي من أجل التحكّم بهم، وب "تفقيس" الأغاني التي تخلو من جمال الشعر واللحن والأداء السليم، والتي تهدم الإنسان والمجتمع أكثر ممّا تبنيهما.

وبالرغم من كلّ التحدّيات، إنّ كلامي لا يدعو الى الانكفاء والاستسلام لواقع لا يقبل به المجتمع الجامعيّ والفنّي الحقيقي، بل يدعو الى أخذ المبادرات والاستفادة من التطوّر التكنولوجي من أجل إيجاد وسائل تربوية موسيقية للشبيبة وتوجيهيّة للمجتمع، على صعيد التعليم والتثقيف، تتماشى مع التغيير المجتمعي، مع الحفاظ على الهويّة الموسيقية العربية.